وهذا العدد الاول من سنتنا الثانية نزفه الى القراء محفوفاً بالامل والرجاء ونودع به العام الماضي مجددين له ما هو اهله من الشكر والثناء ثم نفتتحه بما افتتحنا به عامنا الاول من الاخلاص والدعاء لجلالة مولانا امير المؤمنين السلطان الاعظم ولسمو نائبه الكريم خديوينا المفخم ولصاحبتي العصمة والعفاف الوالدة الكريمة والحرم المصون الذين آزروا هذه المجلة من انعطافهم بما ترتفع له الرؤوس وتقر به العيون ونختم معرض الشكران بالثناء على حضرات مشتركينا ومشتركاتنا الكرام وعلى من امدوا هذه المجلة بما جادت به قرائحهم من نوابغ المقالات ونفثات الاقلام سائلين الله تعالى ان يمتعنا من هذا العام بعام سعيد وان تكون جدته علينا سبباً لكل خير جديد واياه نستلهم السداد فيما يقينا شر الزلل ومنه نرجو الهداية الى الصواب في كل قول وعمل انه ولي الاجابة والدعاء وعليه التكل

ولاحاجة لان نذكر لحضرات القراء ما ستكون عليه المجلة في هذا العام من التحسين وما سنبذله لها من شروط العناية والاتقان فان ذلك قد تقدم لنا الوعد به في جزء العام الماضي الاخير وقد نبلغ باذن الله ما لم يتقدم به وعد وعلى الله اتمام الامنية وبلوغ القصد

القرن التاسع عشر

« وحسناته »

لقد أشرف عامنا هذا على العام الاخير الذي ينتهي به القرن التاسع عشر اجل قرون الدنيا واعظمها نفعاً للانسان بل هو القرن الذي ارتفع فيه الانسان عن درجة الانسان وعظمت نفسه جداً حتى كادت تصبح كنفس المتنبي تأنف ان تسكن اللحم والعظم وخليق بهذا الناطق الحي الذي سخر في هذا القرن الريح يسير فيها ويكاد يوجهها كما يشاء وسخر الماء فجعله بخاراً يسير فيه بالماء بسرعة انحدار الماء ويخترق فيه الهواء بسرعة الهواء ان تضيق به هذه الدنيا الواسعة فيلتمس السكنى في نجوم السماء وان يأنف من وطء الثرى فيجعل مأواه الفضاء

فلقد مر علينا من قرننا هذا نحو تسع وتسعين سنة صارت فيه ارضنا هذه وهي كأنها في اضعاف حجمها من قبل هذا القرن لان هذا القرن لم يترك من الدنيا خفياً الا استوضحه ولا مجهولا الا عرفه ولا مغيباً في الطبيعة الا اهتدى اليه ولا امنية كانت تعد من قبل مستحيلا الا حققها وصارت بين يديه فهو حقيق ان يسمى قرن العجائب او عجيبة القرون لكثرة ما سطر في تاريخه من المنافع وعظم ما جاد به من العقول النادرة والايدي الصانعة المتقنة وما توصل اليه الناس في اثنائه من الحقائق الخفية واستدنوا من المطالب النائية البعيدة فانه قد نشأ في هذا القرن رجل هو نابوليون قال للناس حيثما تكون الارادة يكون المراد فانطلقوا يقفون كلامه ويجرون على قوله فما ارادوا من دنياهم

امراً الا تم وزاد

على ان القرون الماضية لم يكن يخلو فيها قرن من غرائب وانها لمئة سنة لا يمكن ان تبخل الدنيا فيها بعجيبة وهي ام العجائب وحسبك ان الانبياء الكرام ورجال الدنيا العظام الذين وضعوا اسس المدنية ورتبوا الاجتماع الانساني احسن ترتيب انما هم اولاد تلك القرون الخوالي واثمار ذلك الدهر القديم الذين لا نستطيع ونحن في هذا القرن الزاهر ان نقول اننا احسن منهم وان عقولنا اجود من عقولهم ولكنهم انما كانوا اولاد قرون ودهور وابناء مئات وآلاف من السنين فلا يعد عجيباً ان جادت الدنيا بهم في تلك المدد الواسعة

ولكن العجيب النادر هو قرننا هذا الحاضر فانه لم يدلنا التاريخ على ان قرناً او قروناً نسلت من النوع الانساني مثلما نسل هذا القرن من الرجال العظام الذين تتابعوا فيه يزحم بعضهم بعضاً حتى كاد الفضل لا يعد فضلا لكثرة ما رأينا من منافعهم وفضائلهم فهم قد رفعوا عقل الانسان الى رتبة عالية جداً ابتذلت لديها ما تقدمها من العقول وتزيفت بسببها تلك الفضائل الماضية حتى كادت تحسب نقائص ودلونا على ان لفظة المستحيل ينبغي ان تحذف من كتب العالم فلا يكون الا الامكان والتحقيق

ألم يكن من الممتنع المستحيل في القرون الماضية ان يسمع الانسان وهو في بيته حديث جاره بل ألم يكن من المستحيل في الدهر القديم ان يكون في عقل الانسان قوة تفتكر هذا الفكر فقط دون انفاذه فانظر الان ذلك المستحيل كيف اصبح وكيف اصبحت وانت جالس في منزلك تسمع نطق اخيك الانسان وهو منك على بعد الوف من الاميال وانظر ما شئت الى ماشئت

تر انك في هذا القرن عجيبة من امهات العجائب وان المستحيل موجود بين يديك تحوله الى الامكان حينما تريد وقل ان هذا القرن انما هو حقيقة من القرون التي اراد الله ان يغير بها وجه الارض ويبدل حالاتها ومعيشة عبيده فيها

نحن لا نعلم ماذا نسمي هذا القرن أنسميه قرن العلم والحكمة ام قرن العمل والصناعة ام قرن السياسة والتدبير ام قرن الحرية والثروة وغبطة الانسان انه لا يصح لدى الحقيقة ان يتفرد هذا القرن بمزية خاصة فانت اذا دعوته بقرن الحديد والفحم نازعتك الكهربائية هذا اللقب ونازعك الطب والتصوير والفلك والجراحة وامثالها وكل اسم تريد ان تطلقه عليه بالخصوص فهو اذن عصر كل شيء او عصر المنافع بالعموم

انك تستطيع ان تقول انه في هذا العصر قد انقطع التصور والامل فلم يكن فيه الا حقيقة الانفاذ والعمل فان اسلافنا من قبل كانوا يقولون لو فعلنا كذا لحصلنا على كذا فاصبحنا الان وقد امتنعت لفظة لو واستبدلت بتم وجرى فلا ينقضي تصور الشيء والافتكار بكيفيته الا وهو تام مصنوع يعينك على اتمامه كل آلة وتمدك للاسراع فيه كل عدة حتى صار يصح لك ان تمثل لنفسك بقول المتنبي في مديح سيف الدولة فتقول

اذا كان ما انويه فعلاً مضارعاً مضى قبل ان تلقى عليه الجوازم

اما حسنات هذا القرن فقد كان منها التحسين العظيم الذي جرى في آلات الغزل حتى صار افقر فقير يرتدي من رأسه لقدمه بارخص ثمن ثم ما تلا ذلك من التحسين العظيم في البخار وآلاته حتى تقطعت بذلك اعمار المسافات البعيدة واصبحت البواخر تضحك على لجج البحر وعواصف الجو

ثم يعقب ذلك ما تراه امامك كل ساعة من اختراعات الكهرباء المتعددة وما تشاهده فوق رأسك من اسلاك التلفون والتلغراف التي ساعدت البخار مساعدة كبيرة وربطت اطراف الدنيا بعضها ببعض حتى صارت كل هذه الكرة العظيمة وهي كأنها حجرة منزل موصولة اجزاؤها باجزائها اتصالاً لم يشاهده الانسان في دهر من الدهور ولا عرفته الدنيا في عصر من العصور فانت الان ايها الانسان — كما قلنا في مقالة لنا سابقة — تعيش في دنياك هذه خمسين سنة مثلاً فتعدل بها مدة خمسمئة سنة من سني العصور الخوالي ايام كان الانسان يقضي كل حياته لا يستطيع ان ينقل قدماً عن بلاده ولا يعرف من سائر دنياه شيئاً

ثم لا تذكر حسنات هذا القرن بما تراه من صنائع غريبة واختراعات عجيبة مما حسنت به معيشة الانسان المادية وتوفرت معه وسائل الصحة وغبطة البقاء بل اذكر ما وصل اليه الاجتماع الانساني في هذا القرن من شدة ائتلافه وجودة القوانين التي انشئت لقيادته وما نشأت في اثنائه من التعاليم الادبية والمدنية التي جمعت هذا النوع البشري ايما اجتماع حتى صار كأنه عيلة واحدة تربطه العدالة وتضمه الحقوق فامتنع الاستبداد القديم وسادت الشورى وجمهورية الاراء فصار الملك العظيم الذي يحكم الملايين من شعبه لا يستطيع ان يظلم احقر فلاح منهم بعد ان كان الزعيم الصغير والعميد الضعيف يظلم كل قريته ولا يرده احد

ولقد اشتدت المعونة الانسانية في هذا القرن اشتداداً غريباً فصارت الدنيا كلها تخدم بعضها بعضاً وبالتالي اصبح الفرد الواحد من هذا الناس وهو مخدوم من تلك الالف والخمسمئة مليون وهو العدد الذي لم يكن في الدنيا

في غير هذا القرن ثم تلطفت في هذا القرن اخلاق الناس فامتنع من بينهم تعصب الاديان الذميم حتى كدت لا تفرق بين مذهب وآخر وزادت الشفقة في الصدور فكثر التصدق والاحسان وانتشرت جمعيات الخير والرأفة حتى قل ان تخلو مدينة او قرية من جمعية بر او يمضي خطب عميم دون ان تنشأ له اكتتابات المعروف حتى خفت نوازل الطبيعة على الانسان ولانت حدة الخطوب العظيمة لاجماع الناس على دفعها ثم بالغوا في الاشفاق حتى توصلوا الى الحيوان الاعجم يمنعون تعذيبه ويدفعون المشقة والجهد عنه

وعلى الجملة فلو شئنا ان نعدد حسنات هذا القرن للزمنا انشاء مجلد ضخم نذكر به الاصلاح الذي تتابع من اول هذا القرن الى آخره مقروناً اليه النجاح في كل قصد حتى خيل للمرء ان الطبيعة تحت امره وان صروف الزمان بين يديه يقودها الى حيث يشاء ويمنعها عما لا يشاء

الا ان كل هذه الحسنات التي نذكرها وذلك القرن الذي نمدحه انما هو قرن اوربا وحسنات اميركا فانهما كانتا مصدر ذلك الخير العميم ومبعث تلك الفضائل العظيمة وما بقي من الدنيا فانما كان مستنيراً من ذلك النور مستمداً الخير من ذلك المنبع. ولكن اذكر ان كل هذه المنافع التي اصابت العالم لم ترد اليه عفواً ولا نالها بغير ثمن بل هي قد نيلت بجهد عظيم يعدلها وانتفع بسببها بضرر شديد من سواها فدلتنا الطبيعة على ان لا شيء في الدنيا مجاناً وانها تعطيك بقدر ما تأخذ منك فكم من الوف من انفس البشر قد طارت الى خالقها في سبيل هذه الحرية التي نتنعم بها وكم من شقاء اصاب العالم حتى نال هذا الهناء فقد كان الطبيب يموت بالعلة التي يريد ان يمنعها عنك فما منعها حتى مات على اثره اطباء والملاح كان يغرق مع سفينته في لجج البحر

ليكتشف لك موضعاً تنال منه الرزق وقس على ذلك ما تشاء تجد ان هذا القرن العظيم قد خدمك بعد ان افنالك تعباً وجهداً ولكنها خدمة نلت بها الهناء في دهرك وستبقى سبب هناء الى الابد

ولا نطيل الكلام في هذا الفصل عما اصاب كل الدنيا من منافع هذا القرن بل نذكر بلادنا بالخصوص فان نفعها وان لم يكن عظيماً كنفع اوربا واميركا الا انه يذكر ويدون بالقياس اليها فانه في صدر هذا القرن لم يكن في بلادنا من يعرف القراءة فقط الا عدد معلوم كان يطير ذكرهم في الافاق وتحدو بحديثهم الركبان لامتداد الجهل وانتشاره حينئذ ولم يكن المطالعون في صدر هذا القرن يقرأون حرفاً مطبوعاً فصرنا الان والعلم منتشر بين الجميع تقريباً ومعرفة القراءة واجب عند الكثير وامتدت الطباعة والصحافة فصار عندنا الوف من الكتب المطبوعة وعشرات من الصحائف تنشر وترسل الى الافاق وكانت المرأة في اثناء قرننا هذا في اقصى درجات الجهل ونهاية امد البداوة والخشونة فاصبحنا الان نرى مئات منهن مهذبات مطلعات وآلافاً يعرفن القراءة وعشرات من مدارس البنات خاصة حتى صرن يبارين الرجال وينشرن الصحائف كصحيفتنا هذه وهو فضل عظيم لهذا القرن الزاهر لان به بني هذا البناء الوشيك التمام وفي اوله وضع الحجر الاول لذلك القصر الرفيع

ثم انه في هذا القرن قد نشأ في مشرقنا العربي من جددوا الاداب العربية وردوا الى الانشاء والشعر العربي مجدهما الاول فان في صدر هذا القرن تماماً ولد العلامة المرحوم الشيخ ناصيف اليازجي فصرنا نقرأ في ايامه مجمع البحرين كما كان اجدادنا يقرأون مقامات الهمذاني والحريري منذ مئات

سنين وكنا نظن انه من بعد المتنبي والبحتري وامثالهما قد انقطع الشعر ومضت حلاوته فصرنا نقرأ من اشعاره اشرف المعاني مودعة ارق الكلام في احسن أسلوب وكنا نظن ان الدنيا لا تخلف بعد الزمخشري من يكون محققاً في لغة العرب مستوضحاً لخفاياها مطلعاً لمحاسنها فجاء نجله العلامة الشيخ ابرهيم اليازجي صاحب مجلة الضياء الغراء فقرأنا اماليه اللغوية المشهورة وطربنا بتلاوة شعره الجيد وانشائه البليغ حتى رد الينا عصر الاحمدين المتنبي والهمذاني ثم اذكر من حسنات قرننا المرحوم السيد جمال الدين الافغاني الفيلسوف المعروف والشعراء المرحومين عبد الباقي العمري وعبد الحميد الموصلي وعبد الهادي نجا الابياري والمعلم بطرس كرامه واحمد فارس الشدياق اقدم رجال الصحافة ومارون النقاش موليير العرب والشيخ خليل اليازجي كورنيل الشرق لانه اول من وضع الروايات العربية الدعجاء واديب اسحق ميرابو القطرين وخطيبهما واذكر غيرهم كثيرين من مسلمي الشرق ومسيحييه الذين نشرهم هذا القرن ثم طواهم تجدهم انهم كانوا من اكبر الادلة على حسنات القرن التاسع عشر في بلاد العرب ثم اذكر من شئت من ادباء بلادنا كرجال الصحافة العديدين ورجال الانشاء والفنون الذين اولع كل منهم بفن فاجاده واحسن فيه فاننا لو شئنا ان نذكرهم باسمائهم لملانا بها مجلات وهم كلهم من حسنات قرننا الحاضر الذين يهيئون للمستقبل ارفع بناء من المجد ويعيدون للعرب ذلك العهد الذي حال بيننا وبينه عهود وقرون ثم يضيفون الى ذلك رقة الافرنج الجديدة وحكمهم المبتكرة فتقرأ معاني الاوربيين في حروف عربية

ولقد كان من حسنات القرن التاسع عشر على هذا القطر ان نشأت فيه